Vol ٤٧, No ٢ (٢٠٢٠): **ملحق١**:

عدد خاص لمؤتمر العلوم الإنسانية" التحديات واستراتجيات النهوض لجامعة الأنبار

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد:

فلا نجد كتابا سماويا أو وضعيا نقل لنا ما حصل بين موسى عليه السلام وبين فرعون ، وما حصل بين فرعون وقومه بهذه الأمانة والبلاغة والفصاحة ودقة المعلومة كما جاء في القرآن العظيم ، فلا زال العلماء والباحثون يتناولونها بالدراسة فكريا وسياسيا واجتماعيا واقتصاديا وتربويا فضلا عن مواضع الإعجاز فيها وكشف الأسرار والحكم والمواعظ.

مشكلة الدراسة وأسئلتها:

إن الباحثين لم يفصحوا ويبرزوا الإغراءات الفرعونية المتعلقة بالوطن على الرغم من شهرة قصة موسى عليه السلام مع فرعون في القرآن العظيم ، مما يستدعي استقراء ومعرفة هذه المغريات الثلاثة اعتمادا على ما دار في خواطر المفسرين والعلماء من أفكار وتساؤلات ... ثم الإجابة عنها.

أهداف الدراسة:

١: تسليط الضوء على أمر صدر من فرعون ، متمثلا في إغرائه قومه بوطنهم وأرضهم مصر ، لاستمالة قلوبهم ، وخضوعهم لملكه.

٢: الكشف عن الأسلوب الفرعوني الذي استطاع من خلاله أن يستخف بعقول قومه ، ويستصغر أحلامهم ، فتحدث إليهم بهذا الحديث الذي لا يقبله عقل ، ولا يستسيغه عاقل.. ومع هذا فقد تلقاه القوم بالتسليم والطاعة ، ولم يقم من بينهم قائم ينكر هذا القول المنكر، ويسفه هذا المنطق السفيه .

أهمية الدراسة:

فقد أفصح لنا القرآن العظيم أن فرعون قد غرّ قومه بثلاثة مغريات ترددت بين : إغرائهم بمصر البلد الجميل بكل شيء ، وإغرائهم بأن موسى يريد حرمانكم من بلدهم وطردكم منه ، وإغرائهم بتغيير الأحوال

من حالة الاستقرار والأمن إلى الخراب والدمار في المعتقد وسلب الحياة التي يعيشون فيها. وكلها علامات مادية تبهر القلوب الضعيفة ، من ورائها جوانب فكرية ، تبين أن فرعون كان ذا شخصية متناقضة ومتقلبة غير مستقرة ، كل هذه الأمور ستتكشف لنا في دراستنا هذه.

الدراسات السابقة:

لم أجد ـ بعد البحث والاطلاع ـ من أفرز هذه المغريات في دراسة مستقلة ، وإنما هناك دراسات عامة تناولت قصة موسى مع فرعون ، أو ما يتعلق بمصر في القرآن الكريم.

منهجية الدراسة:

اتخذ الباحث المنهج الاستقرائي والتحليلي ، اعتمادا على ما جال في خواطر المفسرين من أفكار وآراء وأسرار المدونة في مؤلفاتهم ، فضلا عن كتب اللغة التي فتحت لنا الكثير من الأبواب المغلقة ... وجاء البحث في مقدمة وأربعة مطالب وخاتمة وعلى النحو الآتي:

المقدمة ، وفيها نبذة عن الدراسة وأهميتها.

المطلب الأول: التعريف بمفردات العنوان.

المطلب الثاني: الإغراء الفرعوني لقومه بجمال وطنهم مصر.

المطلب الثالث: الإغراء بإخراجهم من وطنهم الأم على يد موسى عليه السلام .

المطلب الرابع: الإغراء الفرعوني بإفساد دولتهم على يد موسى عليه السلام.

الخاتمة

المطلب الأول

التعريف بمفردات العنوان

ويتضمن:

أولا: معنى الإغراءُ: فعله أغرى يُغري، أغْرِ، إغراءً، فهو مُغرٍ، والمفعول مُغرى.

وأغرتهم الفتاةُ بجمال صوتها: أثارتهم ، وابتسامة مغرية فيها إغراء ، وعرض مغرٍ: يثير الرغبة.

وأغراه بالشَّيء ، وأغراه على الشَّيء: حضَّه عليه ، وأغرته اللّذة بارتكاب المحرّمات.

وأغرى العداوةَ بين النَّاس: ألقاها بينهم ، وأغرى بين جيرانه: أفسد بينهم . وأغرى المهملُ زميلَه: حمَله على عدم تحمُّل المسئوليَّة والبعد عن مبادئ السّلوك المقبول والتصرُّف السليم .

والمغري هو الذي يفسد بين الناس (عبد الحميد ، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م).

فالإغراء عند علماء اللغة يأتي بعدة معان منها: معنى الإثارة والتحريض ، ومعنى التزيين ، ومعنى الاستمالة، ومعنى الإفساد والتباغض ...

وهذه المعاني كانت حاضرة في خطابات فرعون لقومه وخواطره .

والمعنى الاصطلاحي عند العلماء لا يخرج عن هذه المعاني المستعملة عند علماء اللغة.

ثانيا: حقيقة فرعون ... هو اسم أعجمي ممنوع من الصرف ، والجمع فراعنة ، وهو اسم لكل ملك من ملوك مصر، واختلف في اسمه ، فقيل: مصعب بن الوليد، وقيل: ريان بن الوليد، وقيل: الوليد ابن ريان. وكان أصله من خراسان من مدينة بسورمان، وقيل: من قرية مجهولة تسمى نوشخ (الفيروز آبادي ، بت).

جاء في تفسير الإمام القرطبي: " فرعون اسم ذلك الملك بعينه . وقيل: إنه اسم كل ملك من ملوك العمالقة مثل كسرى للفرس وقيصر للروم والنجاشي للحبشة . وأن اسم فرعون موسى قابوس في قول أهل الكتاب.

وقال وهب: اسمه الوليد بن مصعب بن الريان ويكنى أبا مرة وهو من بني عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام.

وقال السهيلي : كل من ولى القبط ومصر فهو فرعون وكان فارسيا من أهل اصطخر.

قال المسعودي: لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية.

قال الجوهري: فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر ، وكل عات فرعون والعتاة الفراعنة وقد تفرعن وهو ذو فرعنة أي دهاء ومكر (القرطبي ، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م).

يتبين لنا مما سبق أن لفظ فرعون يتردد بين معنيين :

الأول: العام : وهو اسم لكل ملك من الملوك العمالقة مثل كسرى للفرس وقيصر للروم والنجاشي للحبشة ، وكل عات فرعون والعتاة الفراعنة وقد تفرعن وهو ذو فرعنة أي دهاء ومكر.

الثاني: الخاص: فقد ذكر العلماء له عدة تسميات خاصة تقدم ذكرها .

والذي أراه أن فرعون هو اسم ذلك الملك بعينه المذكور في القرآن العظيم ، كما صرح به الكثير من العلماء كالقرطبي.

ثالثا: الوطن ... فقد جاء في كتب اللغة (وطن) الواو والطاء والنون: كلمة صحيحة ، وهو محل الإنسان ومكانه ومقره وإليه انتماؤه وُلِد به أو لم يولد ، والمنزل الذي تقيم به. وأوطنه اتخذه وطنا ، يقال: أوطن فلان أرض كذا وكذا أي اتخذها محلا ومسكنا يقيم فيه ، ووطَن فلانٌ بالمكانِ: أقام به، سكَنه وألِفه واتَّخذه وطَنًا. وأوطان الغنم: مرابضها وأماكنها التي تأوي إليها. وأوطنت الأرض: اتخذتها وطنا (الإفريقي ابن منظور ، ١٤١٤هـ).

وقد استعمل علماء التفسير المعنى اللغوي ... فقد جاء في تفسير الرازي والتفسير البسيط : كل مقام وموضع أقام به الإنسان لأمر يسمى موطنا، ومثله الوطن (الرازي ، ١٤٢٠هـ) ، و ﴿مَوَاطِنَ﴾ جمع «موطن» والموطن هو ما استوطنت فيه.

وكل الناس مستوطنون في الأرض ، وكل جماعة منا تُحيز مكاناً من الأرض ليكون وطناً لها، والوطن مكان محدد نعيش فيه من الوطن العام الذي هو الأرض ؛ لأن الأرض موطن البشرية كلها، ولكن الناس موزعون عليها، وكل جماعة منهم تحيا في حيز تروح عليه وتغدو إليه وتقيم فيه (الشعراوي ، ١٩٩٧م).

ومفهوم الوطن اليوم: هو البلد الذي يسكنه المرء ، ويرتبط به ، وينتمي إليه ، ويحصل على الجنسيّة منه ، أي أنّ مفهوم الوطن بدأ من المنزل ، ثمّ الحيّ ، وتوسّع حتى شمل المدينة ، وتوسعت الرقعة حتى أصبح داخل حدودٍ جغرافيّة مرسومة على الأرض وعلى الخريطة (العبادي ، ٢٠١٨م).

المطلب الثاني

الإغراء الفرعوني لقومه بجمال وطنهم مصر

الأصل فيه قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِّلْآخِرِينَ ﴾ (الزخرف: ٥١ ـ ٥٦) .

دلالتها:

أولا: الجوانب المادية الحسية:

فقد نشّط فرعون فكرة الوطن والإخراج منه وخرابه في خواطر قومه ولاسيما إذا كان الوطن يمتاز بجمال ساحر تنتشر فيه القناطر والجسور والأنهار والخيرات كمصر... حتى إن الماء ليجري تحت منازلها وأفنيتها ، فكانوا يحبسونه كيف شاءوا ، ويرسلونه كيف شاءوا ، ولم يكن يومئذ في الأرض ملك أعظم من ملك مصر، فغرهم بعدة أمور، من أهمها:

أ: التغرير بالأموال مجازا ... الجميع يعلم ما تفعله الأموال في استمالة النفوس ، فقال لهم فرعون كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ (الزخرف:٥١) ، فقال الإمام القرطبي : أراد بالأنهار الأموال ، وعبر عنها بالأنهار لكثرتها وظهورها. وقوله : ﴿تجري من تحتي﴾ أي أفرقها على من يتبعني ؛ لأن الترغيب والقدرة في الأموال دون الأنهار (القرطبي ، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م).

ب: التغرير بأنهار مصر حقيقة ... قال تعالى: ﴿ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ (الزخرف:٥١) ، فذكر أهل التفسير أن الآية تخص أنهار النيل ومعظمها أربعة: نهر الملك ، ونهر طولون ، ونهر دمياط ، ونهر تنيس تجري من تحتي بين يدي وجناتي وبساتيني. حتى إن الماء ليجري تحت منازلها وأفنيتها ، فكانوا يحبسونه كيف شاءوا، ويرسلونه كيف شاءوا ، ولم يكن يومئذ في الأرض ملك أعظم من ملك مصر،

وفي تفسير النقاش: " أنه كان في زمان فرعون خمسة أنهار بمصر اندرست من بعد، ولم يبق منها شيء. وفي هذا التفسير أيضا: أنه كان بمصر سبع خلج التي واحدها خليج، و اندرست من بعد، وكان فرعون يركب من فيوم إلى دمياط والإسكندرية فلا يسير إلا تحت الأشجار ملتفة وأنهار جارية " (السمعاني ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م).

يتبين لنا أن فرعون أراد أن يلفت أنظارهم إلى ما يمثل الجمال والسحر والحياة ألا وهو نهر النيل وغيرها من الأنهار والخلجان التي تعطي الجمال والبهاء لمصر.

ج: التغرير بجنات مصر... فقد كانت الجنات بحافتي النيل من أوّله إلى آخره في الجانبين معا جميعا مما بين أسوان إلى رشيد ، وسبع خلج: خليج الإسكندرية ، وخليج سخا، وخليج دمياط ، وخليج منف ، وخليج الفيوم ، وخليج المنهي ، وخليج سردوس، جنات متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء ، والزرع ما بين الجبلين من أوّل مصر إلى آخرها مما يبلغه الماء. وكانت جميع أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعا لما قدّروا ودبروا من قناطرها وخلجها وجسورها (المقريزي ، ١٤١٨هـ).

د : التغرير بجبالها وكنوزها ... وعن ابن عباس رضي الله عنهما : كانت لهم من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت (الزمخشري ، بت) .

هـ: التغرير بقبضته المحكمة عليها... قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ (الزخرف:٥١) أي حولي. وقال عطاء: معناها في قبضتي وملكي. وقال الحسن: معناها بأمري ، وقيل : كانت تجري تحت قصره . وقيل : تحت سريره لارتفاعه (الزمخشري ، بت).

هذا ما جعل فرعون يستغل هذا الأمر ويذكرهم بالوطن والأرض والجنان والخيرات التي عاشوا عليها وترعرعوا سنين .

ثانيا: الجوانب الفكرية:

وتمثلت بما يأتي:

أ: بدأ المعركة بشن حملة إعلامية تجاه موسى عليه السلام ... بعد أن ذاع أمر موسى عليه السلام وانتشر خبره في أرجاء مصر ، ولما رأى تلك الآيات خاف ميل القوم إلى موسى فجمعهم ونادى بصوته فيما بينهم ، أو أمر منادياً ينادي... يا قوم مستعطفاً لهم بإعلامهم بأنهم لحمة واحدة ، ومستنهضاً بوصفهم بأنهم ذوو قوة على ما يحاولونه . فأراد فرعون أن يواجه هذا الأمر بالمثل وأن يشوه صورة موسى عليه السلام في قومه ...(القنوجي ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م).

ب: فرعون يسلب عقول قومه بالمقارنة بينه وبين موسى عليه السلام ... فيقول: أيها القوم أفلا تبصرون ما أنا فيه من النعيم والخير، وما فيه موسى من الفقر وعيّ اللسان . افتخر بملكه مصر ، وأن الذي هو فيه من ذلك ناله بيده وحوله ، وأن موسى إنما لم يصل إلى الذي يصفه ، فنسبه من أجل ذلك إلى المهانة محتجا على جهلة قومه بأن موسى عليه السلام لو كان محقا فيما يأتي به من الآيات والعبر، ولم يكن ذلك سحرا ، لأكسب نفسه من الملك والنعمة ، مثل الذي هو فيه من ذلك جهلا بالله واغترارا منه بإملائه إياه (الطبري ، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م).

وهنا يؤكد سيد قطب رحمه الله هذا المعنى وبنظرة معاصرة وبكلام يستحق ذكره كاملا كما جاء في الظلال قائلا:

" وهنا يبرز فرعون في جاهه وسلطانه ، وفي زخرفه وزينته ، يخلب عقول الجماهير الساذجة بمنطق سطحي ، ولكنه يروج بين الجماهير المستعبدة في عهود الطغيان ، المخدوعة بالأبهة والبريق... فإن

ملك مصر وهذه الأنهار التي تجري من تحت فرعون ، أمر قريب مشهود للجماهير، يبهرها وتستخفها الإشارة إليه. فأما ملك السماوات والأرض وما بينهما– ومصر لا تساوي هباءة فيه– فهو أمر يحتاج إلى قلوب مؤمنة تحسه ، وتعقد الموازنة بينه وبين ملك مصر الصغير الزهيد! والجماهير المستعبدة المستغفلة يغريها البريق الخادع القريب من عيونها ولا تسمو قلوبها ولا عقولها إلى تدبر ذلك الملك الكوني العريض البعيد! ومن ثم عرف فرعون كيف يلعب بأوتار هذه القلوب ويستغفلها بالبريق القريب! ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ (الزخرف:٥٢) . وهو يعني بالمهانة أن موسى ليس ملكا ولا أميرا ولا صاحب سطوة ومال مشهود. أم لعله يشير بهذا إلى أنه من ذلك الشعب المستعبد المهين. شعب إسرائيل. أما قوله: ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾، فهو استغلال لما كان معروفا عن موسى قبل خروجه من مصر من حبسة اللسان. وإلا فقد استجاب الله سؤاله حين دعاه: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ (طه :٢٥ ـ ٢٨) .. وحلت عقدة لسانه فعلا، وعاد يبين.

وعند الجماهير الساذجة الغافلة لا بد أن يكون فرعون الذي له ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحته، خيرا من موسى– عليه السّلام– ومعه كلمة الحق ومقام النبوة ودعوة النجاة من العذاب الأليم! ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾(الزخرف:٥٣) .

هكذا. من ذلك العرض التافه الرخيص! أسورة من ذهب تصدق رسالة رسول! أسورة من ذهب تساوي أكثر من الآيات المعجزة التي أيد الله بها رسوله الكريم! أم لعله كان يقصد من إلقاء أسورة الذهب تتويجه بالملك، إذ كانت هذه عادتهم، فيكون الرسول ذا ملك وذا سلطان؟.

﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾(الزخرف:٥٣).

وهو اعتراض آخر له بريق خادع كذلك من جانب آخر، تؤخذ به الجماهير، وترى أنه اعتراض وجيه! وهو اعتراض مكرور، ووجه به أكثر من رسول! ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾(الزخرف : ٥٤)" (الشاربي ، ١٤١٢هـ).

ج : اعتماد الجوانب المادية الحسية ، للطعن برسالة موسى عليه السلام الغيبية . يقول تعالى مخبرا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده: أنه جمع قومه ، فنادى فيهم متبجحا مفتخرا بملك مصر وتصرفه فيها وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدري هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته، فإنهم كانوا جهلة أغبياء، وهكذا كقوله: ﴿ فلولا ألقي عليه أساورة من ذهب ﴾ أي: وهي ما يجعل في الأيدي من الحلي، قاله ابن عباس وقتادة وغير واحد، ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ أي: يكتنفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه، نظر إلى الشكل الظاهر، ولم يفهم السر المعنوي الذي هو أظهر مما نظر إليه، لو كان يعلم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ أي: استخف عقولهم، فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له، ﴿ إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾(الدمشقي ، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م).

د : الاستخفاف بالقوم ... أمر لا غرابة فيه فهم يعزلون الجماهير أولا عن كل سبل المعرفة ، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة. ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين! ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق، ولا يمسكون بحبل الله ، ولا يزنون بميزان الإيمان. فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح. ومن هنا يعلل القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾(الزخرف: ٥٤) (الشاربي ، ١٤١٢هـ).

هـ: الافتخار بأمر لا فضيلة له فيه ... وحاصل الأمر أنه احتج بكثرة أمواله ، وقوة جاهه على فضيلة نفسه ، وهذا من جهله البليغ ، إذ افتخر بأمر خارج عن ذاته ، ولم يفخر بأوصاف حميدة ، ولا أفعال سديدة (النعماني ، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م).

المطلب الثالث

الإغراء بإخراجهم من وطنهم الأم على يد موسى عليه السلام .

الأصل فيه قوله تعالى: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ الشعراء:(٣٤ ـ ٣٥).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾(الأعراف : ١٢٣).

دلالتها:

أولا : خوف فرعون من نبوة موسى عليه السلام: لقد أرى الله تعالى فرعون من الآيات والعبر والقواطع جميع أنواعها العيانية والأفقية والنفسية ، فما استقام ولا ارعوى ، وإنما كذب وتولى ، كذب الخبر، وتولى عن الأمر والنهي ، وجعل الحق باطلا والباطل حقا، وجادل بالباطل ليضل الناس ، فقال: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴾ (طه:٥٧) ، زعم أن هذه الآيات التي أراه إياها موسى ، سحر وتمويه ، المقصود منها إخراجهم من أرضهم ، والاستيلاء عليها، ليكون كلامه مؤثرا في قلوب قومه ، فإن الطباع تميل إلى أوطانها، ويصعب عليها الخروج منها ومفارقتها(السعدي ، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م).

وفرعون لمَّا رأى إيمان السَّحرة بنبوة موسى عليه الصَّلاة والسَّلام عند اجتماع الخلق خاف من أن يصير ذلك حجّة قويَّة على صحَّةِ نبوة موسى عليه الصَّلاة والسَّلام فألقى في الحالِ شبهتين إلى أسْماعِ العوامِّ ؛ ليمنع القوم من اعتقاد نُبوةِ موسى عليه الصَّلاة والسَّلام:

الأولى: قوله: ﴿إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي المدينة﴾ (الأعراف:١٢٣) ، أي: إنَّ إيمان هؤلاء بموسى ليس لقوة الدَّليل بل لأنَّهم تَوَاطَئُوا مع مُوسى أنَّه إذا كان كذا وكذا فنحن نُؤمن بِك.

والثانية: أنَّ غرض موسى والسَّحرة فيما تواطئوا عليه إخراج القوم من المدينة، وإبطال ملكهم.

ومعلوم عند جميع العقلاء أنَّ مُفارقَةَ الوطنِ والنِّعْمَة المألوفة من أصعبِ الأمور فجمع فرعون اللّعينُ بين الشُّبهتين، ولا يوجد أقوى منهما في هذا الباب (النعماني ، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م).

ثانيا: التنفير عن موسى عليه السلام بجعلها قضية سياسة: ففي قوله: ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ (الشعراء: ٣٥) ، وفي قوله: ﴿ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾ (طه:٦٣) ، هذا يجري مجرى التنفير عن موسى عليه السلام ، لئلا يقبلوا قوله ، والمعنى يريد أن يخرجكم من أرضكم بما يلقيه بينكم من العداوات فيفرق جمعكم ، ومعلوم أن مفارقة الوطن أصعب الأمور فنفرهم عنه بذلك ، وهذا نهاية ما يفعله المبطل في التنفير عن المحق ، ولأن المفارقة عن المنشأ، والمولد شديدة على القلوب ، وهذا هو الذي حكاه الله تعالى عن فرعون في قوله: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴾ (طه:٥٧) ، وكأن السحرة تلقفوا هذه الشبهة من فرعون ثم أعادوها(الرازي ، ١٤٢٠هـ).

ففي خواطر الجزائري : هو اتهام موسى فوراً بالسياسة وأنه يريد بهذا إخراجكم من بلادكم ليستولي عليها هو وقومه من بني إسرائيل ، وهنا تكلم فرعون وقال: وقوله تعالى عنه ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره﴾ قال فرعون هذا تهيجاً للملأ ليثوروا ضد موسى عليه السلام وهذا من المكر السياسي إذ جعل القضية سياسية بحتة وأن موسى يريد الاستيلاء على الحكم والبلاد ويطرد أهلها منها بواسطة السحر...(الجزائري ، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م).

ثالثا: خداع القوم بأن موسى عليه السلام يريد أن ينغص عليهم معيشتهم الرغيدة :

أراد فرعون أمرين حماية لطغيانه:

الأول: أنه بهذا لَا يريد هداية وتعليما وإرشادا وإصلاحا، ولكن يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، والإخراج يكون بألا يكون لكم سلطان في الأرض، بل يكون الأمر لغيركم وتكونون عبيدا تعيشون على هامش الحياة فيها.

الثاني: أن يكون له سلطان عليكم، وذلك ذهاب لسلطانكم، وإخراج لكم من دياركم، وإن ذلك كله بسحره ، وهذا ينبئ عن الفزع ، ولكنه فزع يتصور الويل والثبور وعظائم الأمور، وإلا ما كان السحر ذاته مزيلا للملك ، ومخرجا من الديار.

وإنه في هذا يستحث قومه على معاندة موسى ، وألا يميلوا كل الميل له ، لأنه عدو الديار، ويكل الأمر إليهم يطلب استشارتهم متطامنا خاضعا ، وقد أحس أن الأمر يخرج عن سلطانه، فيقول في استشارتهم فماذا تأمرون، أي ما الذي تأمرون به، وإني أنفذه.

أجابوا عن ذلك بأنهم يستفزون الشعب كله، وكأنهم توهموا أن في سحر موسى ما يخرج من الديار(أبو زهرة ، بت).

ويؤكد الإمام التوحيدي ما جاء به المفسرون بقوله: الإخراج من الوطن فيه من مفارقة المألوف والأحباب ، وتنغيص العيش دائما، ومنه قول الشاعر:

لموت بحد السيف أهون موقعا ... على النفس من قتل بحد فراق

إذ هو مفارقة المكان الذي ربا فيه ونشأ مع أهله وعلى طريقتهم (الأندلسي ، ١٤٢٠هـ).

وجعل البقاعي الوطن عديل الروح للبدن ، فكان الخروج منه في غاية العسر (البقاعي ، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م).

وقد جمع القرآن بين قتل النفس والخروج من الديار، لأن إلف الإنسان للدار التي يسكنها، وللوطن الذي يعيش أشبه بإلف الروح للجسد، والقتل تفرقه بين الروح والجسد، وكذلك الخروج من الوطن، تفرقة بين الإنسان الكائن الحيّ، الذي يشبه الروح، وبين الوطن والدار، وهما أشبه بالجسد لهذا الإنسان (الخطيب ، بت).

فقد استشعرت نفوسهم ما صار إليه أمرهم من إخراجهم من أرضهم وخلو مواطنهم منهم وخراب بيوتهم فبادروا إلى الإخبار بذلك وكان الأمر كما استشعروا إذ أغرق الله فرعون وآله وأخلى منازلهم منهم ونبهوا على هذا الوصف الصعب الذي هو معادل لقتل الأنفس(الأندلسي ، ١٤٢٠هـ).

رابعا: نظرة معاصرة ، قلب نظام الحكم ... إنهم يصرحون بالنتيجة الهائلة التي تتقرر من إعلان تلك الحقيقة. إنها الخروج من الأرض.. إنها ذهاب السلطان.. إنها إبطال شرعية الحكم.. أو.. محاولة قلب نظام الحكم! .. بالتعبير العصري الحديث! إن الأرض لله. والعباد لله. فإذا ردت الحاكمية في أرض لله ، فقد خرج منها الطغاة الحاكمون بغير شرع الله! أو خرج منها الأرباب المتألهون الذين يزاولون خصائص الألوهية بتعبيد الناس لشريعتهم وأمرهم.

وخرج منها الملأ الذين يوليهم الأرباب المناصب والوظائف الكبرى ، فيعبدون الناس لهذه الأرباب! هكذا أدرك فرعون وملؤه خطورة هذه الدعوة.. وكذلك يدركها الطواغيت في كل مرة.. ذلك الفهم الباهت التافه الهزيل! وهكذا قال الملأ من قوم فرعون، يتشاورون مع فرعون: ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾(الشعراء:٣٤ ـ ٣٥) .

كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون! وتلك شنشنة الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم. عندئذ يلينون في القول بعد التجبر.

ويلجأون إلى الشعوب وقد كانوا يدوسونها بالأقدام. ويتظاهرون بالشورى في الأمر وهم كانوا يستبدون بالهوى.

ذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر، ثم إذا هم هم جبابرة مستبدون ظالمون! وأشار عليه الملأ وقد خدعتهم مكيدته، وهم شركاء فرعون في باطله، وأصحاب المصلحة في بقاء الأوضاع التي تجعلهم حاشية مقربة ذات نفوذ وسلطان وقد خافوا أن يغلبهم موسى وبنو إسرائيل على أرضهم لو اتبعتهم الجماهير، حين ترى معجزتي موسى وتسمع إلى ما يقول(الشاربي ، ١٤١٢هـ).

خامسا: إنها نكبة لفرعون وحاشيته ... يرى الشيخ الشعراوي أنها نكبة جاءت لفرعون الذي يدعي الألوهية ، ونكبة لمن حوله من هؤلاء الذين يوافقونه ، فكيف يواجهها حتى يظل في هيئته وهيبته ؛ قال عن موسى: إنه ساحر، لكي يصرف الناس الذين رأوا معجزات موسى عن الإيمان والاقتناع به ، وأنه

رسول رب العالمين، وبعد ذلك يهيج فرعون وطنيتهم ويهيج ويثير غيرتهم ويحرك انتماءهم إلى مكانهم ، فقال: قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ (الشعراء: ٣٥) (الشعراوي ، ١٩٩٧م).

سادسا: حاشية فرعون كفرعون: إنه يستسلم للملأ حوله ، ويسلّم بأن الأرض أرضهم ، وقد كانوا منذ قليل هم والأرض ملكا خالصا ليده.

وإذا كانت الأرض أرضهم ، وموسى يريد أن يخرجهم من أرضهم هذه بسحره.. فالأمر إذن أمرهم.. فماذا يرون؟ وبماذا يأمرون؟.

وقال الملأ من قوم فرعون: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾(الأعراف: ١٠٩ ـ ١١٠) ، نفس الكلمات التي نطق بها فرعون.. يلتقطها القوم، ويجعلونها جوابا على ما سأل..

وهكذا يكشف القرآن الكريم عن المعجزة وأثرها في القوم، واستيلائها على وجودهم كلّه، بما لم ينكشف حتى لمن شهد الواقعة عيانا، أو وقع تحت تأثيرها مباشرة.

ويمسك فرعون مرة أخرى بخيوط واهية من الموقف الذي كاد يفلت منه، وقد شاع في قومه هذا الشعور بأن موسى ساحر عليم، فيجسّد لهم هذه المشاعر في تلك الكلمات المتحدّية المهدّدة.. يواجه بها موسى! ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴾ (طه:٥٧) ... ويفزع القوم لما يسمعون من فرعون، وأن موسى يريد أن يخرجهم وفرعون معهم– من أرضهم، بقوة هذا السحر الذي بين يديه، ويتمثل لهم من هذا أنهم في وجه خطر داهم.. إن هم لم يعاجلوه بالعزم والحسم، عاجلهم بالبلاء والتشريد من ديارهم، والخروج عما هم فيه من دولة وسلطان في ظلّ من دولة فرعون وسلطانه.. إن الأمر جدّ ليس بالهزل، وإن فرعون يرى أنها معركة... (الخطيب ، بت).

وجاء في خواطر الدكتور الزحيلي : " وقالت السحرة بعد المشاورة والمداومة: ما موسى وهارون إلا ساحران يريدان إخراجكم أيها المصريون من أرضكم مصر، بصناعة السحر، كما يريدان التغلب، للاستيلاء على جميع المناصب، ولتكون لهما الرياسة في كل شيء، ويذهبا بسيرتكم ومملكتكم والحال التي أنتم عليها ويزيلا طريقتكم المثلى، أي الفاضلة الحسنة.

وأقوالهم هذه مستمدة من آراء فرعون ومزاعمه وإشاعاته، مستخدمين أساليب ثلاثة للتنفير من موسى وأخيه: وهي تكذيب نبوتهما ووصفهما بالسحرة ، والكشف عن نواياهما في المستقبل بطرد السكان الأصليين من أرضهم مصر، والاستيلاء على جميع المناصب والرياسات" (الزحيلي ، ١٤٢٢هـ).

المطلب الرابع

الإغراء الفرعوني بإفساد دولتهم على يد موسى عليه السلام..

الأصل فيه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ (غافر: ٢٦).

دلالتها:

أ: فرعون فيه خب وجريزة ... كان فرعون قد استيقن أن موسى عليه السلام نبي ، وأنّ ما جاء به آيات وما هو بسحر، ولكن الرجل كان فيه خب وجريزة ـ كذب ـ وكان قتالا سفاكا الدماء في أهون شيء ، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه هو الذي يثل عرشه ويهدم ملكه ، ولكنه كان يخاف إن همّ بقتله أن يعاجل بالهلاك (الدمشقي ، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م).

ب: فرعون يقدم الفساد الديني على الفساد الدنيوي... ولمّا كان حب الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم لا جرم بدأ فرعون بذكر الدين فقال: إني أخاف أن يبدل دينكم ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا فقال: أو أن يظهر في الأرض الفساد (الرازي ، ١٤٢٠هـ).

ج : فرعون صار واعظا ومذكرا .. بأن موسى يريد أن يضل الناس ويغير رسومهم وعاداتهم . ويغير سلطانكم ويستذلكم أَوْ أَنْ يُظْهِرَ إن لم يقدر على تغيير دينكم بالكلية فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ وذلك بالتهارج الذي يذهب معه الأمن وتتعطل المزارع والمكاسب ويهلك الناس قتلا وضياعا فالفساد الذي عناه فساد دنياهم ، فيكون حاصل المعنى على ما قرر أولا أني أخاف أن يفسد عليكم أمر دينكم بالتبديل أو يفسد عليكم أمر دنياكم بالتعطيل وهما أمران كل منهما مر، ونحو هذا يقال على المعنى الثاني للدين، وعن قتادة أن اللعين عنى بالفساد طاعة الله تعالى(الآلوسي ، ١٤١٥هـ).

وهذا كما يقال في المثل: "صار فرعون مذكرا" يعني: واعظا، يشفق على الناس من موسى، عليه السلام (الدمشقي ، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م).

ويقول الشيخ السعدي: هذا من أعجب ما يكون ، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق هذا من التمويه والترويج الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾(السعدي ، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م).

د: مشاهد وصور وأحداث تتكرر في كل عصر... فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال الوثني، عن موسى رسول الله عليه السلام: ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ (غافر:٢٦) ؟!! أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادئ؟. إنه منطق واحد، يتكرر كلما التقى الحق والباطل، والإيمان والكفر. والصلاح والطغيان على توالي الزمان واختلاف المكان. والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين(الشاربي ، ١٤١٢هـ).

الخاتمة

فقد أفصح هذا البحث عن الأمور الآتية:

أولا: لم يكن فرعون مجرد ملك قاد شعبا لحقبة زمنية معينة ثم ولّى وهلك ، بل خلّد القرآن ذكره في القرآن إلى يوم القيامة ، وما كان يصدر عنه من جرائم بشعة وروح خبيثة مسمومة جعلت منه رائدا للطغاة والمجرمين.

ثانيا: إن فرعون كما جاء في القرآن العظيم لا يريد أن يتدبر أو يتفكر في أي شيء سوى هواه وميوله الحيوانية وإشباع ملذاته ، فهو لا يريد أن يستعلي بروحه عن قاذورات الدنيا فيرى الحق ، فقد طبع على قلبه واتبع هواه . وقد وصفه الله تعالى بأبشع الأوصاف التي لا نجد لها ذكرا في شخص إلا في شخصه.

ثالثا: كان من طبيعة فرعون أنه لا يؤمن إلا بالأمور المحسوسة. وما نقله القرآن الكريم عنه يشهد بذلك . وكان من أهم أسباب طغيانه وعصيانه لله ورسوله ؛ البطانة الفاسدة والسيئة ، ومن التف واجتمع حوله من الجنود والأعوان .

رابعا : ومما جاء ذكره في القرآن العظيم أن فرعون قد نشّط فكرة التعلق بالأوطان في خواطر قومه ، ليجعلهم أداة وورقة بيديه يلعب بها كيف يشاء ومتى يشاء وأين يشاء .

الهوامش

(١) : انظر: عبد الحميد عمر ، معجم اللغة العربية المعاصرة ج٢، ص ١٦١٤، القالي ، البارع في اللغة ، ص٤٠٦.

(٢) : انظر: الفيروز آبادي ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، ج٦ ، ص ٧٠.

(٣) : انظر: القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ،ج ١ ، ص٣٨٣.

(٤) : انظر: ابن منظور ، لسان العرب: ج٦، ص ٤٨٦٨ . الفيومي ثم الحموي أبو العباس ، المصباح المنير،ج٢، ص ٦٦٤ . القزويني الرازي ، مقاييس اللغة، ج٦، ص ١٢٠ . الجوهري الفارابي ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، ج٦ ، ص ٢٢١٤ . عبد الحميد عمر ، معجم اللغة العربية المعاصرة ، ج٣، ص ٢٤٦١.

(٥) الرازي ، تفسير الرازي ، ج١٦، ص ١٨. الواحدي النيسابوري ، التفسير البسيط ، ج١٠، ص ٣٤٣.

(٦) الشعراوي ، تفسير الشعراوي ، ج٨ ، ص ٤٩٩٣.

(٧) كفاية العبادي ، موقع الانترنيت: موضوع ، مقالة بعنوان: ما مفهوم الوطن ، سنة: ٢٠١٨م.

(٨) انظر القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن، ج١٦، ص ٩٨.

(٩) السمعاني ، تفسير السمعاني، ج ٥ ، ص ١٠٨.

(١٠) المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج١، ص ١٣٢.

(١١) انظر الزمخشري ، الكشاف ، ج٤، ص ٢٦٠ . الثعلبي ، تفسير الثعلبي، ج٨ ، ص ٣٣٩.

(١٢) الزمخشري ، الكشاف ، ج٢، ص ٣٤٧.

(١٣) انظر الحسيني البخاري القِنَّوجي ، فتح البيان في مقاصد القرآن، ١٢، ٣٦١ . البقاعي ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، ج٧ ، ص ٣٦.

(١٤) انظر الطبري ، تفسير الطبري ، ج٢١ ، ص ٦١٧.

(١٥) انظر الشاربي ، في ظلال القرآن، ج٥ ، ص ٣١٩٤.

(١٦) القرشي ، تفسير ابن كثير، ج٧، ص ٢٣٢.

(١٧) الشاربي ، في ظلال القرآن، ج٥ ، ص ٣١٩٤.

(١٨) انظر الحنبلي الدمشقي النعماني ، اللباب في علوم الكتاب ،ج١٧، ص٢٧٥ . السعدي ، تفسير السعدي ، ص ٧٦٧.

(١٩) انظر الحنبلي الدمشقي النعماني ، اللباب في علوم الكتاب ، ج١٥ ، ص ٢٢.

(٢٠) الرازي ، تفسير الرازي ، ج ٢٤ ، ص٥٠١.

(٢١) الجزائري ، أيسر التفاسير للجزائري ، ج٣ ، ص ٦٤٧.

(٢٢) أبو زهرة ، زهرة التفاسير، ج٦ ، ص ٢٩٢٢.

(٢٣) الأندلسي ، البحر المحيط ، ج٣ ، ص١٥١.

(٢٤) البقاعي ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج٧ ، ص٥١١.

(٢٥) الخطيب التفسير القرآني للقرآن: ٣/ ٨٢٩.

(٢٦) الأندلسي ، البحر المحيط في التفسير: ٥/ ١٣٤.

(٢٧) انظر الشاربي ، في ظلال القرآن ، ج٥ ، ص ٢٥٩٤.

(٢٨) انظر الشعراوي ، تفسير الشعراوي ، ج٧ ، ص٤٢٨٦.

(٢٩) الخطيب التفسير القرآني للقرآن ، ج ١٠ ، ص ١٣١.

(٣٠) الزحيلي ، التفسير الوسيط للزحيلي ، ج٢، ص ١٥٣١.

(٣١) القرشي ، تفسير ابن كثير، ج٧ ، ص ١٣٩.

(٣٢) الرازي ، تفسير الرازي ، ج٢٧ ، ص٥٠٧.

(٣٣) الآلوسي ، تفسير الألوسي ، روح المعاني، ج١٢ ، ص٣١٦.

(٣٤) : الحنبلي الدمشقي النعماني ، اللباب في علوم الكتاب ، ج٣، ص ٤٦٢.

(٣٥) : تفسير السعدي ، تيسير الكريم الرحمن: ٧٣٦.

(٣٦) : في ظلال القرآن: ٥/ ٣٠٧٨.